

قتسمه بأذنيك وقلبك وجوارحك ، بل تكاد يدك تلمس فيه (شيئاً) ضحكاً ... على صحة في الخارج ، وضبط في الأداء ، وقوة في الثبات ، وثبات في المحطات ، واعتداد بالنفس عجيب ، تشعر به في هذا الصوت الذي يكون له هذا الدوي كله ، وهو يخرج من فم صاحبه باسترسال واسترخاء ، لا يفتح له شدقه ولا يحرك لسانه ، ولا يمد نفسه ولا يجهد نفسه ، وأنساناً بهذا الصوت وهذا الإلقاء ، أن نقصد القصيدة ، أو نجد لها العيوب ، وملك به قلوبنا وقلوب الحاضرين ، فصفقنا له حتى احمرت منا الأوكف .

وقلت لسعيد : من هذا ؟

قال : هذا فارس الخوري .

وكنت قد سمعت باسم (فارس الخوري) قبل ذلك بزمان ، سمعت به مذ كنت تلميذاً في السنين الأواخر من المدرسة الابتدائية أيام الملك فيصل (١٩١٩) ، وكنا نعرفه علماً من أعلام السياسة ، وركنا في وزارة المالية ، ولكنني لم أراه قبل هذه الحفلة .

وصرت الأيام ، وخرجت من الثانوية ، واشتغلت بالسياسة (كما كان يشتغل لداني يومئذ) ، وصرت سنة ١٩٣١ ، رئيس اللجنة العليا لطلبة دمشق ، ومحرراً في الجريدة الوطنية الكبرى جريدة (اليوم) التي كان يقوم عليها الكاتب الوطني الخطيب الأديب ، الذي علمنا تقديس الشرف ، وتقدير الرجولة ، عارف التكدى ، وكانت اللجنة تأتمر بأمر الكتلة الوطنية ، التي كان لها (في تلك الأيام) قيادة الأمة ، وكانت هي وحدها تحمل لواء الجهاد ، والعمل على الاستقلال ، فكنت اتصل بكبار رجالها ، وكنت أحضر بعض مجالسهم ، وهناك عرفت فارس الخوري من قرب ، فرأيت فيه رجلاً وديماً ظريفاً ، حليماً واسع الصدر ، ولكنه كان (مع هذا كله) هائلاً ، مخيفاً ، تراه أبداً كالجيل الرقور على ظهر الغلاة لا يهزه شيء ، ولا يعضبه ولا يميل به إلى الخدّة والهياج ، يدخل أعنف المناقشات بوجه طلق ، وأعصاب هادئة ، فيسد على خصومه المسالك ، ويقم السدود ، من المنطق الحكم ، والنكتة الحاضرة والسخرية النادرة ، والملم الفياض ، والأمثال والحكم والشواهد ، ويرقب اللحظة المناسبة حتى إذا وجدها ضرب الضربة الماحقة وهو ضاحك ، ثم مدّ يده يصاقح الخعم الذي سقط ... لا يرفع صوته ، ولا يثور ولا يعبس ولا يعضب ، ولكنه كذلك لا يفر ولا يفلب .

ما أعرفه عن فارس الخوري

للأستاذ علي الطنطاوي

أقيمت في ردهة المجمع العلمي العربي في دمشق ، من نحو عشرين سنة ، حفلة لتكريم حافظ إبراهيم حضرها أنا وأخي سعيد الأفغاني ، وكنا يومئذ في مطلع الشباب ، نقصد هذه الحفلات لتنتقد الخطباء ، ونبنتي لهم العايب ، فن لم نعب فكرته عننا أسلوبه ، ومن لم تنتقص إنشائه انتقصنا إلقاءه ، وخطب كثيرون في الحفلة ، وقال فيها حافظ بيتيه المروفين :

شكرت جميل صنعكم بدمي ودمع العين مقياس الشعور
لأول مرة قد ذاق جفني على ما ذاقه طم - السرور
ولم يلم من ألسنتنا ... وكان فيمن خطب رجل قصير القامة ،
عظيم الهامة (جداً) ... أبيض الشعر ، التي قصيدة لا أزال أذكر
أن مطلعها ، كان :

ليال التصابي قد جفاني جبورها ولمتى السوداء أسفر نورها
ومن لي بإنكار الحقيقة بعد ما تجللى على وجهي وفودي نذرها
تذكرت أيام السرور التي مضت فياليت شمري هل يعود سرورها
لئن لي مع الأصحاب سهم مسدّد

وحظي من ريم الكناس غيرها
أسفت على عهد الشباب ولم تمد تثير فؤادي مقلة وقتورها
وأدنتني الأيام من هوة الرق فأسبح متى قاب قوس شغيرها
وكادت صروف الدهر تطوى صحائف

وهل بعد هذا الطلّ يرجى نشورها

إلى أن ...

وتخلص إلى لقاء حافظ ، وقال إنه جدد له عهد الشباب ... وهي قصيدة طويلة لا أرويه^(١) ، وكان صوته قوياً على انخفاض مدوياً على وضوح ، كأن له عشرة أسداء تتكرر معه ، فتجسّس به يأخذك من أطرافك ، ويأتي عليك من الأفطار الأربعة ،

(١) وهي في الكتاب الذي لم يعمل وقت لسوق ولحافظ ، حن بالأدب ، مثله : (ذكرى الثامر) للأستاذ أحمد عبيد طبع (المكتبة العربية في دمشق) .

وراح يشرح لي مزياه ، ولكنني لم أفهم منها شيئاً ، وشعرت من الخجل كأن دلو ماء حار صبّ عليّ ، وقد صرت على ذلك الآن خمس عشرة سنة ، ولا يزال صوته (يدرى) في أذني ، فأشعر بالخجل من هذا الموقف .

— وخرجت من الكلية وكنت أراه في الترام ، أو ألمح في الطريق ، فأجد من إنبائه وسؤاله عني ، وحفاوته بي ، ما يملأ نفسي شكراً ، وهذه مزية من مزياه ؛ يشعر كل من يلقاه أنه صديقه الأوحده ، وأنه أقرب الناس إليه ، وأنه لا يشتغل إلا بذكره ومعرفة أمره ، والعناية به ، وكنت أزور المجمع العلمي العربي ، وهو من كبار أعضائه ، فأراه أحياناً في مناقشات أدبية أو لغوية ، فإذا هو في مجال العلم والحفظ ، كما كان في مجال الرأي والفكر ، وإذا هو متسلط غلاب في مساوالات الأدب واللغة ، كما كان الغلاب التسلط في مساوالات السياسة .

— ومهرت الأيام وصار رئيس مجلس النواب ، فكانت رياسته عجباً من العجب ، وكان الوافدون على دمشق ، لا يريدون إذا رأوا جامع بني أمية ، والرطوبة وقاسيون ، إلا أن يروه على منعمة الرياضة ، ليحدثوا قومهم إذا رجعوا إليهم بجليل ماراوا وما حضروا كان النواب بين يديه (ولا مؤاخذة يا صادق النواب) كالتلاميذ بل إن أكثرهم كانوا تلاميذه فعلاً ، وكان يصرفهم تصرفاً لا يوصف ولا يثبت على الورق ، وما هم بالذين يصرفون أو يسيرون وإن فيهم لكل باقمة داهية ضرب اللسان حديد الجنان آفة من الآفات ، بطيخ بالحكومات ، وينسف الوزارات ، ولكن الهدأة تسطو على المصادر ، فإن قابلت النسر الضرحى عادت هي عصفوراً ...

— وكانت تشبك الآراء ، وتتداخل المقترحات ، وتشتد المنازعات ، وتثور الحزبيات ، فما هي إلا أن يتكلم ويلخص الموقف ، ويفسر الأقوال ، ويبين المقاصد ، حتى يقرب البعيدين ويجمع الشتيتين ، ويصب على جمرة النضب سطل ماء ، ويستل الرأي الموافق من بين الآراء المشتبكة ، سلّ الشجرة من العجين ، ويعرضه للتصويت ، وكان له في هذا المرض (فن) ، ما تنبه له الناس إلا بعد حين ، هو أن في النواب ، من لا يشتغل حتى ولا يرفع

وما رأيت يناقش أحداً إلا شبهته بأستاذ يناقش تلميذاً مدلاً غيبياً ، فأتت تلمس في لهجته ولحظته وبسمته وكلمته ، صبره عليه ، وتملكه منه ، واشفاقه عليه .

ثم كنت تلميذه في السنة الأخيرة من كلية الحقوق (١٩٣٣) وكان يدرس علم المالية ، وأصول المحاكمات المدنية ، ياقى درجه إلقاء لا تدرى أنت تعجب وتطرب ، لفصاحة لهجته ، أم لتزارة مادته ، إلقاء غير محتفل به ولا متجمع له ، وكانت له عادة (لازمة) هي أن يأخذ قلماً رصاصياً طويلاً ، فيقيم على قاعدته وهو يحفظ وهو يداريه ويمارده حتى يستقر ، ولا يكاد ، ولا يبصر ذلك ولا يلقى باله إليه ، كأنه يكره أن تبقى يده بلا عمل فهو يشغلها به ، أو كأنه يرى هذا الدرس لا يستحق انتباهه كله ، ولا يملأ هذا الرأس النادر ... فيأخذه على أنه لهو وتسلية ، وكنا نورد عليه في آخر الساعة أسئلة من كل فن ومشاكل في كل موضوع فيجيب عنها كلها ، بتحقيق العالم ، أو ببلغة الأديب ، أو بنكتة الشاعر ، ومن أجوبته الحاضرة ، ونكته الساخرة ، أن طالباً (تقريباً ...) سأله :

— ما فائدة هذه الحروف اللثوية ، ولماذا تقول ثاء ، وظاء ، فنخرج الستنتا ، ونضطر إلى هذه الغلاظة ؟ فقال له على الفور ، وقبل أن يتم سؤاله :

— لا فائدة لها أبداً ، وستركها ونجدد فنقول (كسر الله من أمسالك) .

فسكت التليل خزيان .

— ومن عجائب حلمه ، وسمة صدره ، ووقاره الذي لا يجره شيء ، أتى أتيت عليه مرة ، بعد الدرس ، وكانت لي عليه جراءة فقلت له أمام الطلاب :

— يا أستاذ . ما هذا القرار السخيف الذي وضمته البلدية ، لتقسيم أرض الدرويشية ؟ أليس من العار أن يصدر عن بلدية دمشق هذا الجهل وهذا الظلم وهذا ...

— في عشر مترادفات من هذا النمط ، ساق إليها تزق الشباب فلما انتهيت منها قال لي ، والابتسام لم تمح عن شفثيه :

— أنا الذي وضع سيمتة هذا القرار أ

(القتطف) من قبله ، وكان يصدر مجلة (القتبس) من بعده ، فسكات دعاة ضخمة في صرح نهضتنا الأدبية والعلمية ، والشيخ الذي لا يزال شاباً يمشي عشرة أميال ، وهو يقر أنه في الثمانين ، والذي لا يُدري أذهنه أفتى أم روحه أم جسمه ، الذي يكتب اليوم وقد كان يكتب من نصف قرن : المغربي ، والشيخ القوي الأمين ، الذي كان في أول سنة من هذا القرن المجرى قاضياً في دوما ولا يزال عالماً عاملاً نشيطاً كيوم كان في دوما : سليمان الجوخدار وهذا الشيخ (الخورى) ^(١) الذي شهدت بعقريته الدنيا ، وأكبرته الأجيال ^(٢) على اختلاف ألوانها وأصنافها وبلدانها ، ورأت فيه (شخصية) ضخمة ، لا توزن بها (شخصيات) هؤلاء الذين ألفت إليهم قوة دولهم مقاليد الأرض ، وحكمتهم في رقاب البشر ، واعترفوا بأنه حمل مع عبء الثمانين ^(٣) حمل رياسة مجلس الأمن فكان خير رئيس له وأقواء . هذا ، وليس وراءه أسطول منه جاءت هيئته ، ولا قبلة ذرية قامت عليها سلطوته ، ما وراءه إلا أمة صغيرة كتبرتها بعقريته ، ودولة ضعيفة قوتها (شخصيته) ، حتى كان صوتها أعلى الأصوات ، وكلامها أبلغ الكلام ، وخطبته عنها هي نقطة التحول في مجرى الرأي في مجلس الأمن ، كما قال الأستاذ الصاروي في (أخبار اليوم) .

ولقد عجب الذين لا يعرفون فارس الخورى لما سمعوا أنه لم يقرأ خطبته من كتاب ، ولا تلاها من ورقة ، بل ارتجفها ارتجافاً ولم يكن في يده إلا بطاقة فيها (خرايش) بالقلم الرصاص ، رآه التقراشي وهو يحطها بحسب أنها مذكرات له في مسائل عادية من مسائل الحياة ، فلما رأى أنها هي الخطبة العظيمة التي هزت أضخم هيئة دولية في الأرض ، بلغ عجب من هذا الرجل ، وإعجاب به ، أبعد حدوده ...

أما نحن فلم نعجب ، لأن الشيء من معدنه لا يستغرب ، وهذا الرجل الذي بدأ يتعلم الانكليزية قبل أن يولد أكثر أعضاء الوفد المصري في مجلس الأمن ، والذي أعطاه الله هذا الذهن المجيب ، فجعله لغوياً أدبياً شاعراً حقوقياً مشاركاً في كل فروع الثقافة ، وأمدّه بمنطقٍ شديد ، وعقل نادر المثال ، وورقة ذكاء

(١) وآخرين لم أحصهم

(٢) الجيل : الأمة فالعرب رجل والترك جيل ، والانكليز جيل ، نفع الله هذا الجيل . (٣) لا الثمانية والستين .

اليد ، ولا يتال الأمة منه إلا حضوره الجلسة ، وقبضه الاتب ، وكان يعرف هؤلاء ، فتارة يقول (الوافق يرفع يده) ، فيكونون نعم المخالفين ، وتارة يقول (المخالف يرفع يده) فيكونون مع الوافقين يكف بذلك من جموح الأكرية ، ويقوم من اعرجاجها ...

وغضب منى سعد الله الجابري مرة ، وكان رئيس وزارة ، وهو رجل حلبي لا يعرفني ، فاضطرت أن استشهد بعض من يعرفني من رجال الكتلة ، فأتيت أقرب إلى من فارس بك ، وكان رئيس المجلس ، وقطب ربحى انسياسة العليا ، وكان كثير المشاغل ضيق الوقت ، ولم يكن بد من أن أسأله موعداً ، ولكنني كنت في حجة من أمرى ، فذهبت إليه بعد العصر في ساعة ينام فيها أكثر الناس ، فحاول الشرطي أن يردني ، فهرته ورفعت صوتي فسمعتي نخرج إلى ، مبتهما ، وقال له :

— هذا الشيخ على ! ألا تعرفه ؟ إنه دائماً مشاغب !

وأدخلني ، فأتيت المنصب لم يبدل منه شيئاً . إنما يبدل المنصب من يكون أقل منه فيكثر به ، لا من يكون أكبر من مناصب الأرض كلها ، وقد يما قيل : السنبلة الملوثة تنحني ، والفارغة ترفع رأسها .

ودخلت عليه في مكتبه وهو رئيس وزارة ، فما وجدت إلا أستاذنا فارس الخورى ، الأستاذ العالم الأديب المحاضر الجواب ، السائد النكتة ، وكنت أظن أني سأجد دولة الرئيس فارس بك الخورى الذي لا يكلم إلا بعبريضة ، ولا يخاطب إلا بالبروتوكول !

وفارس الخورى واحد من الشيوخ الأجلاء الذين تميز بهم دمشق ، والذين إن فاخرت انكلترا بتشرشل ، وعمله عمل الشباب وهو في سن الشيوخ ، فإن كل واحد منهم تشرشل لنا ، لا تفخر بأنه بقي شاباً في عمر الشيوخ ، بل بما جمع إل ذلك من العلم والفضل ، والثقافة والمرقان ، كالشيخ عبدالمحسن الاسطواني علامة الشام الذي لا يزال موظفاً له همة الشباب ، وهو (حفظه الله) فوق التسمين ، والشيخ كرد علي أبي النهضة الأدبية في الشام ، الذي يعمل اليوم دائماً على المطالعة والبحث والتأليف ، كما كان يعمل منذ خمسين سنة ، عندما كان محرراً في (المؤيد) ، وفي